أولا : المسلمون فى آسيا الوسطى - دراسات

للأستاذ الدكتور / محمد حرب

هذا الكتاب يحوى دراسات عن عالم مسلمى آسيا الوسطى والبلقان ، وهى دراسات فى واقع شعوب ودول تركستان والقوقاز والبلقان ، وهى دراسات عن هذا العالم الجديد دوليا وهو جزء عزيز من العالم الإسلامى كان ضائعا بين براثن الشيوعية حتى تحرر جزء منه ، والجزء الآخر فى الطريق إلى التحرر ، وقد أراد الكاتب بهذه الدراسات كشف الهوية الإسلامية التركية فى هذه البلاد حتى يعرف العالم وبصفة خاصة المثقفون والباحثون والقراء العاديون ، وذلك من خلال محورين :

المحور الأول : الوضع الراهن لهذه الشعوب من كل نواحيه تقريبا .

المحور الثانى : آداب هذه الشعوب ، ويقصد بذلك آدابها المعاصرة .

وتركستان تعنى أرض الأتراك وهم شعوب وقبائل مسلمة تتحدث اللغة التركية الشرقية بعدة لهجات ، ويكتبون لغتهم هذه بالحروف العربية منذ إسلامهم ، وتركستان قسمان :

تركستان الغربية : وهى التى كانت خاضعة للإستعمار الروسى السوفيتى .

تركستان الشرقية : وهى التى تخضع حتى الآن للاستعمار الصينى الشيوعى .

والغريب أن كلمة تركستان كان محظورا استخدامها فى الاتحاد السوفيتى القديم قبل انهياره ، وكانت الدولة تستخدم بدلا منها كلمة آسيا الوسطى ، كما أن كلمة تركستان محظورا استخدامها فى الصين الشعبية « الشيوعية » واستبدلتها الصين بكلمة صينية هى « سن كيانج » ومعناها المستعمرة .

اغتيال الحروف العربية فى اللغة التركستانية :

فقد قامت السياسة الروسية السوفيتية منذ الثورة البلشفية ١٩١٧ على مبدأ تحريم وتجريم استخدام الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية وهى حروف استخدمها الأتراك هناك منذ عرفوا الإسلام وكانت لغتهم هذه بحروفها العربية جامعة موحدة لهم . وقد وجد الروس أن تركستان منطقة واسعة ذات ثقافة إسلامية موحدة تتحدث لغة واحدة لها حروف ثابتة .

وللقضاء على هذه الوحدة كون الروس لجنة علمية بإشراف البروفيسور « كون » مهمتها محددة فى قطع هذه العلاقات الثقافية بين المسلمين فى تركستان بينهم وبين دين

الإسلام نفسه ، واتخذت هذه اللجنة توصياتها التى قالت إن السبيل الأساسى ذلك هو تقسيم منطقة تركستان إلى شعوب والارتفاع بكل لهجة من لهجات اللغة التركستانية فى تركستان إلى درجة اللغة المستقلة لها حروفها المستقلة ونحوها وصرفها .

وقد احتج المسلمون فى تركستان على هذا خوفا من انقطاع بعضهم البعض وهم ذوى قربى ورحم خوفا من انقطاعهم عن الإسلام والتراث الإسلامى ، وقام علماء تركستانيون فى مؤتمرات علمية يدافعون عن الحرف العربى ، فقبض عليهم وحوكموا بتهمة الرجعية . إلا أن قرار الحكومة السوفيتية قد صدر عام ١٩٢٤م بناء على توصيات لجنة « كون » ، وقضى هذا القرار بتقسيم تركستان الغربية إلى خمس جمهوريات سوفيتية هى (أوزبكستان ، قازاقستان ، تركمانستان ، قيرغيرستان ، طاجيكستان) على أن يكون لكل جمهورية لغة خاصة مستقلة ، ونص القرار على أن تتخذ كل جمهورية لهجتها لغة لها ، وقد أطلق على هذه السياسية وقتها « سياسة فرق تسد » ثم دبر الروس الرسميون مع بعض عناصر إدارية شيوعية محلية وتركستانية مؤتمرات تجمع ممثلين لأتراك تركستان بهدف إلغاء الحروف العربية وبدأت الإدارة الروسية عام ١٩٢٨م بتطبيق عملية اغتيال الحرف العربى بين مسلمى تركستان ، وهذا الحرف هو مفتاح ثقافتهم الإسلامية وعلوم الإسلام ، وأحلوا محله أبجدية لاتينية بها بعض الحروف الروسية « الكيريل » ورأت الإدارة الروسية عند الأخذ بالحروف اللاتينية ضرورة اختلاف بعض أشكال الحروف مع كل لهجة محلية ، وكان هذا القرار سياسيا يحقق أهداف روسية سياسية ، وتختلف هذه الأهداف فى :

١ - قطع كل صلة بين تركستان وبين الإسلام

٢ - تفريق المسلمين وهدم وحدتهم باستخدام أبجدية مختلفة لكل مجموعة منهم .

٣ - قطع الصلات بين المسلمين وتركستان وبين الثقافة الإسلامية .

٤ - منع الارتباط وقطع الصلات بين مسلمى تركستان وبين الشعوب الإسلامية المجاورة سواء فى داخل الاتحاد السوفيتى مثل القرم قبل ضمها إلى أوكرانيا أو خارج الاتحاد السوفيتى مثل أفغانستان .

ولم تكن السياسية السوفيتية فى سبيل اغتيال الحرف العربى فى تركستان واستبداله بالحرف اللاتينى إلا خطوة نحو تفتيت وحدة مسلمى تركستان ، فبإلغاء الحرف العربى قطع الروس صلة جيل العشرينات من المسلمين بالإسلام ، لكن هذا الجيل كان يعرف الحرفين العربى واللاتينى ، فكانت الخطوة التالية للسياسية الروسية اللغوية هى

إصدار أمر مركزى فرض على مسلمى تركستان الغربية ترك الأبجدية اللاتينية أى الحرف اللاتينى واتخاذ الحروف الروسية الكيريلية بديلا ، وصدر هذا الأمر عام ١٩٤٠م ، فلم ينس هذا الأمر المركزى ضرورة إيجاد حروف متميزة فى نطاق الحرف الروسى لكل شعب من شعوب تركستان حتى يصير ضمانا لابتعاد كل منها عن الشعب الآخر ، وعند إلغاء الحرف العربى أحرق الروس الكتب الإسلامية عام ١٩٢٨ م ، وفى عام ١٩٤٠ م عندما ألغوا الحرف اللاتينى الذين أكرهوا المسلمين على استخدامه أحرقوا ما كتب بهذا الحرف ، ولم ينس الشيوعيون كذلك حرق الكلمات والمصطلحات العربية فى هذه اللغة وهى كثيرة بحكم ارتباط الأتراك وغيرهم بالإسلام ، واستبدال ذلك بكلمات روسية وملء هذا الفراغ باصطلاحات روسية خاصة التكتيكية منها والسياسية والأوربية وغيرها .

اغتيال الحرف العربى فى تركستان الشرقية :

تخضع تركستان الشرقية حتى الآن لاحتلال الصين الشعبية الشيوعية ويطلق عليها الصينيون « سين كيانج » بمعنى المستعمرة ، ويحرم هناك استخدام الاسم الإسلامى وهو تركستان الشرقية ، وكان اغتيال الحكومة الصينية الشيوعية للحرف العربى رسميا عام ١٩٥٦ أى فى ذروة العلاقات الحميمة بين الاتحاد السوفيتى والصين ، وعلى الفور صدر قرار الصين بإلغاء استعمال المسلمين للحرف العربى فى تركستان الشرقية ، ومقابل هذا أمرت الحكومة الصينية بإحلال الحرف الروسى محل الحرف العربى الإسلامى الجميل ، ولما توترت العلاقة بين الصين الشيوعية والاتحاد السوفيتى أصدرت الحكومة الصينية قرارا فى فبراير ١٩٦٠ بتحريم استخدام الحروف الروسية فى كتابة اللغة العربية فى تركستان الشرقية ، وأمرت باستبداله بحروف جديدة من الحروف الصينية لكى تجمع بين الحرف الصينى واللاتينى ، وعن طريق هذا التغيير دخلت فى لغة التركستانيين كلمات وتعبيرات واصطلاحات صينية كثيرة لم يكن منها شئ قبل احتلال الصين الشيوعية لتركستان الشرقية عام ١٩٤٩ ، وزادت المأساة بعد أن رفضت السلطات الصينية شعار اللغة الصينية هى الوسيلة الوحيدة للتقدم فى التركستان الشرقية والذى رفضته الأغلبية المسلمة وهى أويغورن والقازاق والقيرغيز والأوزبك والتتار وغيرهم ، واستمر هذا الوضع المأساوى أيام حكم ماوتس ى تونج ، لكن الأمور فى الصين تغيرت كثيرا بعد زوال تأثير ماو ، واستفاد مسلمى تركستان الشرقية كثيراً من انتهاء غمة ماو وحدثت تغيرات كثيرة فى حياة المسلمين هناك .

الإسلام والصراع القومى فى الاتحاد السوفيتى المنحل :

عندما قامت الثورة الصناعية الأوروبية كانت تبحث عن المواد الخام وكانت تبحث عن الأسواق أيضا ، ونشطت الدول الاستعمارية ونشطت القيصرية الروسية واحتلت بلاد

المسلمين فى أسيا الوسطى (تركستان) وبالتالى خضع المسلمون فى هذه المناطق إلى الجبروت القيصرى الروسى ثم الجبروت الشيوعى الروسى ، إلى أن أذن الله بانتهاء الشيوعية وبسقوط الاتحاد السوفيتى وتحرر المسلمون من هذه العبودية ، ومعلوم لدى الجميع مدى الصراع العظيم الذى راح ضحيته الملايين من الأتراك المسلمين فى سبيل إبقائهم على الإسلام ، ومعلوم أيضا مدى القهر الماركسى الذى حاول طمس الإسلام فى عقول الناس هناك .

ونذكر هنا مثالا هو فى الواقع عبرة ... ففى بلاد القرم عندما تحررت من الشيوعية قام مصطفى جميل أغلو فى المجلس الوطنى القومى وقال لمواطنيه التتار نعم إننا لم نعد نعرف كيف نصلى لكننا نؤمن بالله ربا وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا ونبيا ونعرف أننا على الإسلام نموت ، لكننا لا نعرف ، هذا الجمال الذى يملأ قلوبنا والذى فى سبيله قاومنا الشيوعية والشيوعيون ، أنى آمر الآن بأن يرفع الأذان فى كل المساجد التى أغلقها الشيوعيون خمس مرات فى اليوم إلى أن يتعلم شعبنا كيف يصلى ساعتها يكون الأذان ومعه تقام الصلاة وعندما أمر جميل أغلوا بوضع أساس مسجد جديد بعد زمان طويل من المنع ، دمعت أعين كل الذين شاهدوا هذا الحفل . وعلى سبيل المثال أيضا قام شعب مسلم صغير عدده مليون ونصف المليون نسمة يطلق عليه جمهورية الشيشان والأنكوش بالانطلاق فى شوارع جروزنى العاصمة ، والشيشان هم أحفاد الشيخ الإمام شامل قائد الجهاد القوقازى ضد روسيا القيصرية ٣٥ عاما - يرددون فى الشوارع فى حلقات تلو حلقات (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثم تجمعوا فى عدد هائل ليركزوا أحد الجنرالات المسلمين المتقاعدين داوديف ، ثم ليتجوه رئيساً لبلادهم التى أعلنوا استقلالها وأقسم رئيسهم قسماً وهو « أقسم بالله العظيم أن أحارب من أجل استقلال شعب الشيشان حتى آخر قطرة فى دمى وهكذا أقسم الجميع (جميع المواطنين) ، وفى هذا اليوم قال العلماء المسلمون إن هذا اليوم يوم عظيم فى حياتنا اللهم لا ترينا أياما سوداء كالتى عشناها تحت سيطرة القوم الكافرين ، اللهم بارك لنا فى حريتنا هذه فإنها فى ، أننا نسير فى سبيل الله ولن يستعبدنا كافر بعد اليوم ، وتألفت حكومة إسلامية شيشانية ونزل الناس إلى الشارع ومعهم أسلحتهم ، والسلاح عند الشيشانى حياة ، وأقسموا بالفداء وبانتهاء الكربة بعودة الإسلام إلى ربوع بلادهم ثم ترددت نداءات « الله أكبر » ، وأعلن هذا الشعب المسلم على لسان رئيس جمهوريتهم الجديد وهم على قلب رجل واحد علماء وقادة وشعبا أن العدو الروسى لو تحرك ضدهم أو لم يعترف باستقلالهم فإنهم - سيقطعون طريق موسكو - باكو .

وسيقوم الشيشانيون المتفرقون فى مختلف مناطق الاتحاد السوفيتى بعمليات انتحارية لنسف المؤسسات الاستراتيجية الروسية ، خاصة النووية . وفور هذا الإعلان أيدت الجمهوريات الإسلامية منها شعب الشيشان ، وأعلنوا أن أى اعتداء روسى على جمهورية الشيشان إنما هو اعتداء على المسلمين والنتيجة أن الجيش الذى أرسله القادة الروس إلى بلاد الشيشان لم يستطع أن يفعل شيئا ، ونصر الله المسلمين بتصويت البرلمان (برلمان روسيا) بعد المعارضة التى قادها فيكتور ، بل سلم الجنود وعددهم ٨٠٠ وكذلك تسع طائرات جاءت لنقلهم سلموها هدية إلى رئيس جمهورية الشيشان فقبلها على اعتبارها أنها هدية القادة الروس للجمهورية ، وهذا نموذج مصغر لما حدث بالدول الإسلامية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى ... ولكن فيما بعد سرعان ما غدر الروس بشعب الشيشان ، ومازالت الحرب دائرة على أرض هذه الجمهورية المسلمة الصغيرة ، ولكن صمود أبطالها أمام الجنود الروس أذهل العالم .

الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى تنبأ بسقوط الشيوعية :

قد لا يتفق الكثير من المهتمين بآداب الشعوب الإسلامية داخل الاتحاد السوفيتى والكثير من نقاد الأدب والأدباء فى أن الأدب الإسلامى رغم معاناته خلال سنوات القهر السوفيتى من المصادرة وسجن أصحاب الأقلام الإسلاميين إلا أنه رغم كل ذلك فقد ظهر العديد من الأدباء المعاصرين من تركستان والقوقاز أشهرهم جنكيز إيتماتوف من قيرغيرستان ، وعبد الرشيد إبراهيم من تتارستان وهاب زادة من أذربيجان وجنكيز حناغنجى من القرم ، ومحمد سليموفتش من البوسنة والهرسك ورجى كوبجى من بلغاريا .

ومن أشهر نماذج الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى والبلقان فى مجال القصة القصيرة الأعمال التالية :

١ - وداعا يا بخارى قصة مرال معروف من تركستان .

٢ - الصلاة فى زمن الحرب قصة جنكيزخنا غنجى من القرم .

٣ - رفيق المسجد قصة عبد الرشيد إبراهيم من تتارستان .

٤ - العجوز والفتاة قصة محمد أصلان من أذربيجان .

٥ - الخندق قصة إسماعيل قدارة من ألبانيا .

٦ - الرحيل قصة محمد سليموفتعر من البوسنة والهرسك. أما عن أشهر القصائد والشعراء الذين ظهروا فى بلاد آسيا الوسطى والبوسنة والهرسك فهى كالتالى :

١ - فك حصار يزفونيك للشاعر مى زادة .

٢ - فك حصار بنالوقا للشاعر عزيبتى .

٣ - أحلم بعالم جديد للشاعر حسران بايرابيج .

٤ - مرثية للشاعرة دارا سكوليتش

٥ - الدخان للشاعرة ياسنا شامنش

٦ - لم يعد للشعر مكان للشاعر عزت سراى لينش .

٧ - زكريا للشاعر جمال الدين لاتينش .

٨ - فى ليلة انعدمت فيها النجوم للشاعر جعفر طورابيتش .

٩ - هذه الأرض للشاعر قرا حسين .

١٠ - أرضنا الخصبة للشاعر نيازى حسين .

١١ - كل صباح للشاعر نيازى حسين .

١٢ - الحمامة للشاعر شاهين مصطفى .

١٣ - لا تتركنى أيها الربيع للشاعر لطيف على .

١٤ - الإيمان والأمل والحرية للشاعر الشهيد رجب كويجو

ومن الروايات المسرحية :

١ - جميلة للروائى جنكيز إيتماتوف

٢ - أيتها الجواد كول خارى

٣ - يمتد اليوم فيصبح قرنا

وغير ذلك من الأعمال الأدبية المبهرة والتى شهد لها الأدباء فى كل جهات العالم ... والحقيقة أن الكتاب الذى بين أيدينا يعتبر موسوعة تاريخية ثقافية سياسية أدبية مصغرة عن العالم الإسلامى فى بلاد التركستان والقوقاز والقرم وبلغاريا والبوسنة والهرسك ، وهو واحد من سلسلة كتب فى نفس الاتجاه يشرف على إصدارها المركز المصرى للدراسات العثمانية فى مجال البحوث عن العالم التركى بالقاهرة ، ومؤلف هذا الكتاب اشتهر عنه أنه متخصص فى التاريخ العثمانى ، وهذا إضافة طيبة للمكتبة العربية .

عرض وتقديم : **د / عز الدين إسماعيل أحمد**

obeikandl.com